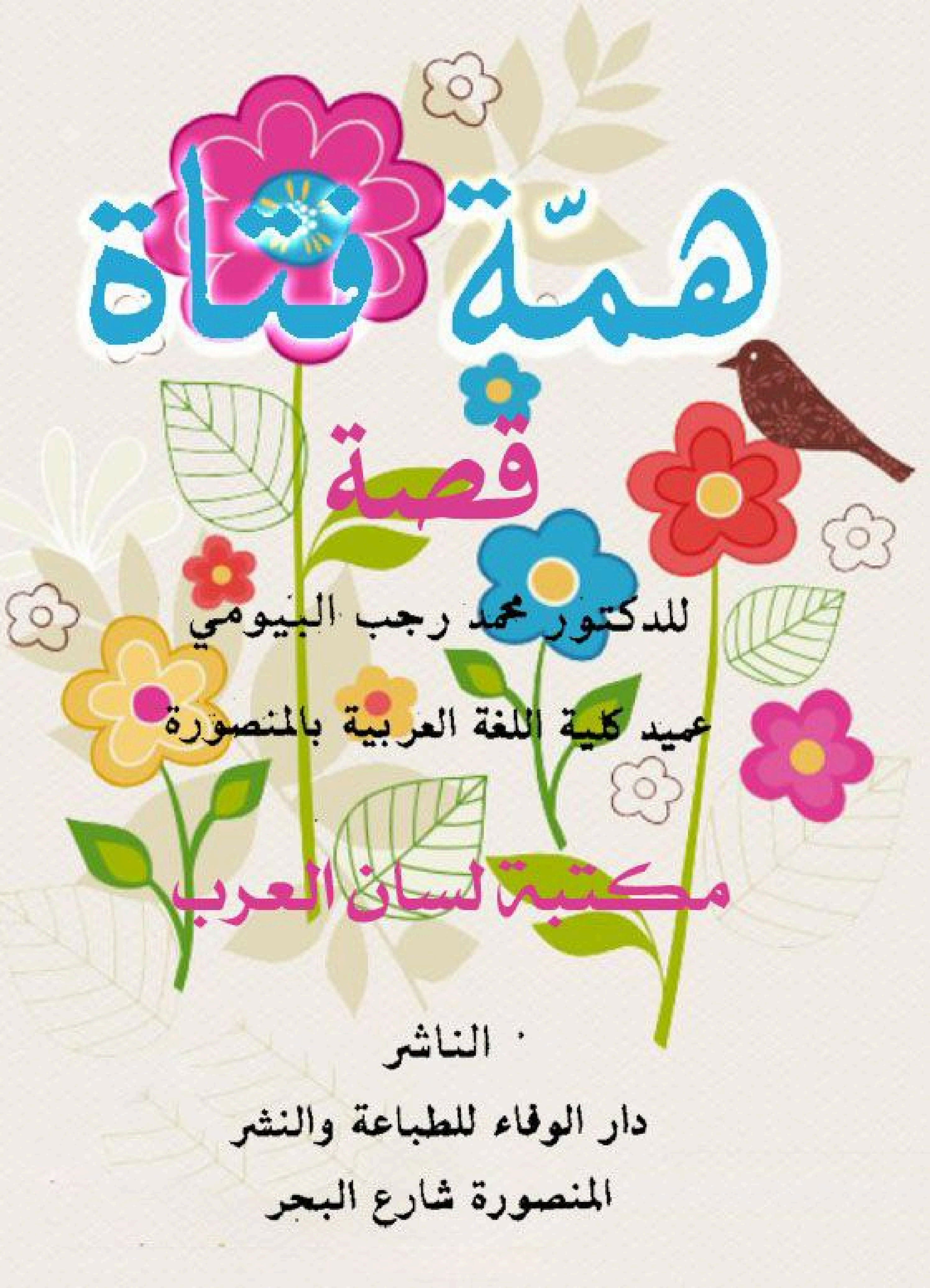


همة فتاة

قصة

للدكتور محمد رجب البيومي

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

الناشر

دار الوفاء للطباعة والنشر

المنصورة شارع البحر

نحو أدب إسلامي عالمي ٢

أدب الأطفال والفتيان

هِمّة فتاة

قصة

للدكتور محمد رجب البيومي

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

الناشر

دار الوفاء للطباعة والنشر

المنصورة شارع البحر

أمام كلية الطب

تلفون ٢٧٤٢٣

الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كريمتي العزيزة

نجلاء رجب البيومي
بمدرسة شجرة الدر الإعدادية للبنات
بالمنصورة

همة فتاة

للدكتور محمد رجب البيومي

هبت الريحُ شديدةً على خيام طَيءُ تحمل الرِّمال المحرقة فتؤذي العيون وتنشر غباراً يحجب الأفق ، ويطوي شعاع الشمس ، فأسرع النَّاسِ إلى خيامهم يتَّقُون بها العاصفة الشديدة وقد أخذت تهتز بعنف في مهبِّ الرياح ، حتىّ خَشِيَ القوم اقتلاعها ، وكأنَّ الماشية قد أحسّت بالخطر فأخذت الشياهُ تَثْغوُ ، والإبل تَرْغو ،والجياد تَصْهل ، في حين أطرقت نَائِلةُ زوجة أَوْس بن حارثة سيد العرب في خيمتها إطراقة حزينة وأخذت تقلّب عينيها في قلق حائر ، كأنما تفكّر في مستقبل رهيب ، واذ ذاك دنت منها ابنتها الزهراء ، وكانت شابّة جميلة في مقتبل ربيعها الباكر ، تحتل مكانه راقية من نفوس عارفيها ، لما يبدو من حُسن رأيها ، وسماحة تفكيرها ورجاحة عقلها ، حتى كانت تُشير بالأمر فيتَّبعه أبوها وأعمامُها تقديراً لسدادها ويرون فيها مثالاً

رائعاً للفتاه العربيّة ذات الحسب الأصيل ، والخُلق القويم ، تقدمت الزهراء إلى أمّها نائلة ، فقالت لها في دُعابة :

أتحزنين ياأمّاه لأن الريّاح تهبّ كما تعودَتْ أن تثور ، ولن تنقضي لحظات حتّى تهدأَ العاصفة ، ويعودَ الجوُّ صافياً كما تشهد ذلك مئات المرات ؟

فرفعتْ الأمُّ رأسها ، ونظرت إلى الزهراء نظرة فاحصة ثم قالت :

ومن أخبرك يابنيّتي أني أفكر في هبوب الريح ، إنما الأمرُ أعمقُ من أن يتجه إلى مشهد مألوفٍ ، يستمر لحظات ، ثم يزول

فعاجلتها الزهراء سائلةً : وفيم تفكّرين إذن ياأمّاه ؟

فعاودت الأم إطراقها ، وقالتْ في يأس : أفكِّر فيما بلغني الليلة البارحة عن مصائب عبس وذبيان ، فقد جاءني أن أبناء العمومة والخؤوله في عبس تفنيهم السيوف وتأكلهم الرماح .

٧

فزفرت الزهراءُ زفرةً حارّة ، وقالتْ في لهفة : أتزورك امرأةٌ من عبس كهذه التي كانت عندنا بالأمس فَتُهَيِّج مواجَعك وتتركك نهباً للأحزان ؟ إني لأقسم قسماً لا أحنثُ فيه أن أَمنع عن لقائك كلَّ واحدة من هؤلاء .

فعضَّت الأم بأسنانها على شفتيها وقالت في تأوُّه : مهلاً يازهراء إني أنتهز الفُرص إلى لقاءِ أقاربي من عبس ، فأنا هنا في طيء غريبة عن موطنِ صباي ، وملعب شبابي ، وأحبُّ أن أتنسّم أخبارَ هذه النار المندلعة بين أحبائي في عبس ، وأعدائهم في ذبيان ، وإذا انقَطعت عني أنباؤها فترة طويلة أحسست بلذع النار :

فدارت الزهراء بعينها في حيرة ، ثم سألتْ أمَّها في أسف : إلى متى تستمر هذه الحرب الطاحنة بين القبيلتين الثائرتين ؟ لقد قضيت من حياتي عشرين عاماً ياأمَّاه ، وأنا أسمع كل يوم عن فظائعها الرهيبة ما يعصر القلب ويشوي الضلوع .

فأطرقت الأم كعادتها حين تفكر ثم رفعت رأسها وأتجهت إلى ابنتها قائلة :

عشرين عاماً يازهراء تسمعين عنها أفجع الأنباء ، لِيَ الله من بائسة حزينة فقد مرّتْ علي أربعون من السنين وأنا أسمع كل يوم خبراً فاجعاً عن فقد أخ أو ابن عم أو قريب أو حبيب ثم لا أجد غير الدّموع أبثُّها شكواى ، أنسيتِ يازهراء أني امرأة من عبس أحسّ بما يحسون من أرزاء ، ولكنْ لطف الله بي فتزوجتُ في طيء بعيدة عن مسرح الحوادث ومسبح الدماء ثم ترفرفت دمعتان ساخنتان على خدّ الأم فاضطربت الزهراء قليلاً لما أثارته في نفس والدتها من شجون ، واستمسكت بهدوئها الحازم ، فابتسمت في لطف مهذب ، ودَنت من أمها تقول في حنان :

هوّني عليك ياأماه فلكل شيء نهاية وإن طال ، ولكن الأم لم تنطق بشيء فاندفعت الزهراء تسألها في رفق !

ألا يوجد بين سادات العرب مَن له همّة عالية من الرجال

فيتقدم إلى زعماء عبس وذبيان فيحسم الخلاف داعياً للصُّلح واذ ذاك تلتئمُ الجراح ؟

فتأوهت الأم تأويهة حارة وقالت في حزن مرير :

هيهات أن يستمع هؤلاء واولئـك الى عقل حصيف ، إنهم أثـاروا هـذه الحرب الطّـاحنـه في شيء تـافـه لا يقـام لـه حسـاب ، ولو كانَ لـديهم بقيـة من عقل راشـد مـا اشتعلت هذه النار الجاحمة أربعين عاماً بسبب فرسيْن يتسابقان

فضربت الـزهراء بيـدهـا على صـدرهـا ، وقـالت في تعجب : واحر قلبـاه ! أتشتعـل الحرب أربعين عـامـاً بين عبس وذبيان بسبب فرسين يتسـابقـان : وضحي الأمر قليلاً ياأماه

فحركت الأم رأسها متألِّمه وقالت في اكتئاب :

تسابق فرسان هما داحس والغبراء في مضمار ، فجـاء أحـدهمـا سابقاً ، فادعي القوم أنه سبق عن مكيـدة مـدبّرة ، وتعصب كل فريـق لفرسـه ، وأشتـدَّ الخـلاف والجـدل حتى أنتهى إلى

معركة دموية ، والتمس كلٌّ موتور ثأره فامتدت النّار إلى أربعين من الأعوام

تطلعت الزهراء كالذّاهلة وقالت في حيرة

ليس من المعقول أن تستمر الحرب أربعين عاماً بسبب فرسين أماه

فأجابت الأم في أسف

لم تعد المسأله مسألة فرسين يازهراء ! لأن المعركة الأولى قد انجلت عن هزيمة قوم وانتصار آخرين ، فتحفز الفريق المغلوب إلى الأخذ بالثأر ، وجعل الناس يحصون أسماء القتلى ، وكلٌّ قبيلةٍ لا ترتاح الا إذا حصدت من الرءوس أكثر مما حصدتْ غريمتها ، وضاع العقل بين الناس ، لأن الذين أشعلوا النار قد ماتوا جميعاً في القتال ! وليت الأمر وقف عند ذلك ، إذ أنّ الراحلين قد ورثوا أبناءهم أحقادهم فنشأ كل مولود يرضع البُغض والكراهيةَ لأعدائه ، وذهب أناس وجاء أناس ، والحرب لا تزال

طاحنـة ، والنسـاء يولولْن ويُـذكرْن الأنبـاء بمصارع الآبـاء ويزينّ لهم الانتقام ، حتى أحسب هـذه الحرب الغـاشمـة لن تنتهي الاّ بفناء الأنام !

قـالت الـزهراء في غيـظ إذن وأين العقـلاء من سـادات القبائل المجاورة ؟ ألا ينهض فريق من المحايدين إلى الـدعوة إلى السلام ! وفِيمَ الرجوله والبطولـة ، ان لم تُؤديـا الى حسم الشر ، ومنع الفساد !

فـأجـابت الأم في يـأس : دعي هـذه الأحـلام يـازهراء فكلّ قبيلة مشغولة بأحقادها وهمومهـا ، ومن جـال بخـاطره أن يصلـح بين عبس وزبيـان خشى على نفسـه أن يفسـد مسعـاه فيغضب لكرامتـه ويجر قـومـه إلى حرب طـاحنـة فيصطلى النارّ بعد أن كان منها على بعد طويل !

فحدّقت الزهراء كالغاضبة وهي تقول : ليست هذه هي الرجولـه يـاأمـاه أين إذن والـدي وهو سيـد طيء وصـديق الملـك النعمان ؟! لمـاذا لا يـذهب إلى أصهـارهِ في عبس ثم

يلتقي بأصدقائه في ذبيان أو يدعو رؤساء الفريقين إلى دياره فيشير بما يحسم الشقاق

نظرت الأم نظرات مُشفقة ثم قالت في صوت قريب من الهمس : لقد جال بخاطري أكثر من مرّة أن أشير على أبيك أوس بن حارثة بالسّفارة بين القبيلتين ولكني خشيت أن يظن بي الظنون فيعتقد أني جازعة حزينة لما أصاب عشيرتي في عبس وَإني أدفع بطيء جميعها الى حربٍ تعود عليها بالنكبات .

فصاحت الزهراء ابعدي عنك هذا الوهم ياأمّاه ، وسأصارح أبي بالأمر حين ألقاه ولن أعلمه شيئاً مما دارَ بيْننا ، وسأحرج كبريائه حتى يضطر إلى المسعاة في السلام .

دنا المساء قليلاً قليلاً فرجع سيد طيء أوس بن الحارثة إلى منزله ، فوجد خيمته الواسعة الممتدة تعجٌ بالعرب من مُريديه ، فتصدَرَ القوم في رفعة ومهابة وجلس بين معشره

يفض الخصومات ويشير بالرأي ، ثم أمر بذبح الذبائح وتقديم الطّعام لمن أمّ ساحته من المتخاصمين والأضْياف وأخذ الحديث ينتقل بين السّامرين من فن إلى فن فهذا شاعر يلقي قصيدته ، وذلك راوية يحكي قصته ، وذلك مُغنّ يرفع صوته بأعذب اللحون حتى انتصف الليل وتفرق الجمع عن أوس بن حارثة شاكرين له كرمه الزائد ورأيه الحصيف ، ومن ثم توجه في تؤدة إلى خيمته حيث أعتاد أن ينام ، ولكنه فوجيء بالزهراء تنتظره على فراشه في غير ميعاد فتقدّم إليها في رفق وسألها في مودة وحنان : ـ ألك من حاجة يازهراء ؟

فابتسمت الفتاة في حياء ثم قالت في هدوء :
انتظرك من أول الليل ياأبتاه ، فلم تأخرت هذا الأمد الطويل ؟

فنظر اليها أوس نظرة حانية وقال :
إنها تكاليف السيادة ، يازهراء ، لابدّ أن أُطعم الناس ،

وأفْصلَ في الخصومـات وأشير بـالرأي فـاجمع حـولي المـلأ من الأعمام والأخوال .

فرمقته الفتاه في حزم ، وصاحت في جراءة ثابته :

ليستْ هذه أبواب السيادة ياأبتاه ، هناك بـاب فخُـم مرتفع لا يلجه غير السادة الأبطـال دُهش الأب لمـا سمع دهشة آخذة فلم يعهد فتاته الحبيبـة تتقـدّم إليـه بـاعتراض ، فسكت مليا ثم نظر إليها نظرة عاتبة ، وهَمَس يقول :

ـ أىّباب للسّيادة تعْنين يازهراء ؟

فبرقت عينها الساحرة بوميض نفـاذ ، وقـالت في حرارة صادقة :

أبتـــاه ، أنت تعلم مـــا بين عبس وذبيـــان من حروب يشيب لهـــا الـــولـــدان ، وقـــد أكلت الأخضر واليـــابس ، وحصـدت الجسـوم والأرواح ، ومـازالتْ من أربعين عـامـاً متقـــدة اللّهيب ولن يطفيء سعيرهـــا المشتعـــل في العرب سواك .

فشخص إليها أوس متعجباً وسأل في حيرة :

نحن من طيء فما لنا ولغطفان ! وكيف نتدخل في شئون عبس وذبيان ؟

فصاحت الزهراء منفعلة :

أنت ياأبتاه سيّد العرب جميعاً كما وصفك النُّعمان ، ولك الصّوت المسموع في القبائل ، والصيت الممتد في البُطون فلماذا لا تشير بالصلح بين القوم فترجع بمجد الدنيا وعزّة الأجيال

فتحيّر أوس ، وكأنه لم يدر بماذا يجيب ، فأسلم نفسه إلى التفكير لحظات حتى إذا اهتدى لبعض الرأي قال ؛ وفتاته شاخصة إليه ترمُق وجهه الجاد .

بُنيّتي العزيزة : أنا كما تعلمين صهر بني عبس ، ولا شك أن عواطفي تميل إليهم دون بني عمومتهم من ذبيان ولئن سعيت في الصلح المنشود وهو أمر شائك جداً ليقولنّ الناس إنّ أوساً لا يطلب مصلحة الفريقين في السلام ولكنه يميل

مع عبس على ذبيان ، فقاطعته الزهراء تقول ! وأنا أعرف أن لك مكانة عالية في ذبيان ، وأن أصدقاءك الكثيرين منهم ينهضون إلى زيارتك بين الحين والحين وأستطيع أن أعد منهم عشرات وعشرات اذ كانوا يمكثون لدينا أياماً بعد أيام فلماذا لا تجمع أصهارك من عبس وأصدقاءك من ذبيان على كراهية الدم وإيثار السلام .

فحرك أوس رأسه كالمتردّد ، وقال في همس وكأنه يحادث نفسه : هذا مطلب عسير المنال فمِن دونه أهوال وأهوال !!

فصاحت الزّهراء كالمحتدة :

ایّ عسير يقف في وجهك ياأبتاه : سْر إلى المجد من طريقه الفسيح، ليس المجد كل المجد أن تجلس في كسر بيْتك مساءً لتنحر الذّبائح لسادات العرب ، يأكلون ويشربون ويسهرون ثم ينصرفون في مؤخّرة اللّيل ، وقُصارى عملهم الاستماع إلى قصيدة مديح أو قصّة كرم ، أو صوت شاد ، إنّ المجد كل المجد أن تُطفيء نار الحرب ، فتمسح عبرة الثّاكل ،

وتُجفف زفرة اليتيم ، وتجعل العرب يشعرون أنك بلسم الشفاء وبدر الظلماء .

فأدرك الأب أن الحديث سيمتد دون رويّة وتفكير فربّت على كتف الزهراء ، وابتسم في هدوء ودعة ثم قال في عطف حنون :

سأنهض قريباً بما تريدين يافتاتي ، فهلّمي إلى مضجعك الآن لتأخذي حظك من النوم المريح ، وسترين مني عن قريب أباً يسعى في نشر الأمن وإطفاء الحريق .

فأكبت الفتاة على يديه لاثِمةً مقبلة ، ثم نهضت إلى خيمتها الملاصقة وتركت أباها وحده في بحر هائج من التفكير ، يحاول النّوم فلا يستطيع حتى أسلمه الظلام إلى الصباح ، والأفكار تتقاذفه دون أن تصل به إلى ملجأ أمين .

كان الوالد الأريب لا يستطيع في ليلته المؤرقة أن يسير مع تفكيره في مجرى واحد ، بل كانت تتوزّعه طُرق كثيرة

تختلط عليه وتتشابه فهو يسير في طريقٍ ما خطواتٍ ثم يشرد ذهنه إلى طريق آخر ينتقل خاطره إليه فجأة ، فَهُوَ مَرةً بفكّر في هِمَةِ ابنته الزهراء وسموّ أهدافها وكيف أنصرفتْ زميلاتها إلى التفكير في الزواج والعرس والمأكل والملبس ، وأنصرفت هي إلى التفكير في نشر السلام وإسعاد الناس ، وما يكاد يُلّم به هذا الخاطر حتّى يشرد إلى ما سيقابله من المصاعب إن سعى بين المتخاصمين ناشداً تحقيق أمل الزهراء ، ففي كل فريق شباب جامح يركب رأسه ولا يستمع إلى نداء العقل بل تعصفُ به النّعرة الغاضبة إلى الاستهانه بالدّماء والاندفاع وراء الفتنه في كل مكان ، ثم هو بعدُ صهر بني عبس ولا بد أن يجد بعض المغرضين من بني ذبيان شكوكاً تحومُ حول مَسعاه ، وقد يعزُّ عليه أن يخيبَ القوم رجاءه فيرمي بقومه إلى معركة هم عنها الآن بمأمَن مستريح ! وقضى الرجل في تفكيره فأخذ يستعرض أسماء كثيرة لشيوخ القبائل في الجزيرة العربية لعلّه يجدُّ منِ

بعضهم من يستطيع أن يسعى سعيه ويعمل عمله ، إذ أن اليد الواحدة لا تصفق ، ولابد أن يتعاون المخلصون في المسعى الجليل ليضمنوا النجاح الأكبر .

أشرق الصباح فنهض أوس من مضجعه ، وأفكار الليل تأخذ عليه طريقه فأورثت صدره انقباضاً موحشاً ، وما كاد يرتفع الضحى ويخطو قليلاً في مضارب طيء حتى سمع من يناديه باسمه ، فألتفت ناحية الصوت فرأى الحارث بن عوف سيد بني مرة في ذبيان يناديه باسمه ، فانتظر حتّ لقيه ، ولم يكد يسمع منه كلمة ويرد عليها حتّ احمر وجهه من الغضب ورجع إلى خيمته مغضباً ثائراً كأن بركاناً يلتهب في صدره ، وأخذ أوس يزفر زفرات غاضبة ، فرأت زوجته نائلة ما يرتسم على وجهه وعرفت فيه صورة مما يضيق به صدره فحاولتْ أن ترفِّه عنه بعض الشيء ودنت منه مُعجَله تتكلف الإبتسام ثم بادرته بقولها :

لم رجعت ياأوس دون أن تقضي أمورك كما تعوّدت !

فتمتم يقول في همس : لا شيء !
فنظرت نائلة إليه كالمنكرة ثم عجلت تقول :
ومن هذا الذي ناداك فحدثته حديثاً سريعاً ثم تركته دون أن تدعوه ؟!
فقال في اقتضاب هو الحارث بن عوف بن أبى حارثة المرىّ أحد سادات ذبيان
فدقت صدرها بيدها وقالت الحارث بن عوف سيد العرب في بني مرّة !
فأجاب أوس : نعم إنه الحارث

فضربت نائله كفاً بكف وسألت : أيأتي إليك سيد من سادات العرب فلا تطيل كلامه ولا تستضيفه وأنت تستضيف جميع الناس !! واعجبا
فقال أوس متبرّماً كان من الطبيعي أن أستضيفه لولا أنه ارتكب أمراً ذا حماقة وجنون
فنظرت نائلة متفرِّسة ثم صاحت :

مثلُ الحارث لا يرتكب الحماقة ، اذ لا يسود قومه أحمق مجنون ياسيد طيء !!

فعاجل أوس يقول :

لقد جاءني خاطباً يطلب يد الزهراء !

ففغرت فمها دهشة وسألته :

أتريد أن تتركها عانساً ياأوس ؟

فتسرعَ يجيب ، كلاً فذلك ماَ لاَ أرتضيه !!

فقالت متعجبة : وإذا لم تتزوّج الزهراء سيد العرب في بني مرة فمن تتزوّج ،ألديك في معارفك من تراه أرفع قدراً من ابن عوف ؟!

فتراجع أوس يقول : قد كان ذلك مني اذ عجلت دون أن أتريث

فبادرت نائلة تقول : اذنْ فتدارك ما فاتك قبل أن تضيع الفرصة ، فمن للزهراء غير الحارث من الرجال ؟!

فسكت أوس قليلاً ثم قال وكيف أتدارك ما فات ؟

فردّت نائله : تنهض إلى فرسك فتلحق به قبل أن تطويه الصحراء ، وتقول له في تودد إنّك ياحارث باغتني بأمر خطير دون أن تمهِّد له ببعض القول ، فلم يكن عندي من الجواب غير الرّفض ،

فقال أوس : ألا ترين أني أصغر في عينه يانائله ؟

فقالت : كيف تصغر في عينه وهو يعلم أنك سيد طيء ؟! ولولا مكانتك لديه ما ترك دياره وقدم لخطبة الزهراء .

فانتصب أوس واقفاً وهو يقول في حماسة إذنْ سأسير دون إبطاء .

خفّ الوالد إلى اللحوق بالحارث ، ونفسه تحدثه عن المسعاة في الصُّلح بين عبْس وذبيان اذ أن حديث الأمس مع الزهراء قد ملك أقطار تفكيره ، فأخذ يعتقد أنه لن يكون سيد طيء إلا إذا قام بعمل يتحدث عنه الرُّكبان ويتَغنّى به الشعراء ، وتسمر بأحداثه الخيام ، وكان يعتقد في أعماقه أن الحارث بقوة شخصيته ومكانته في قبيلته وصيته في الجزيرة العربية يستطيع أن يعاونه معاونةً ناجحة إذا اتجه معه اتجاهاً صادقاً للعمل على السلام ، وها هو ذا الحارث قد جاء إليه في دياره ، ولعل الأقدار ساقته هذا المساق لتتم المعجزه الكبرى على أيدي الرجلين الكبيرين ! وقد جدّ أوس في مسيره حتى لمح الحارث فناداه من بعيد ، وكان الرجل الغاضب ضائق النفس ، منقبض الصدر ، فلم يشأ أن يجيب المنادي ، وإن كان قد تباطأ قليلاً في مشيته فلحق به أوس وهو يصيح

ـ قد أتيتك ياحارث فانتظرني !

ـ قال الحارث في انقباض : وكيف أنتظرك بعد أن خذلتني ؟!

فعاجل أوس يقول : لم أخذُلْكَ ياصاحبي ولكنّك فاجأتني دون أن تعرف شيئاً عن مهر الزهراء !

فقال الحارث مستنكراً ، أىّ مهر يكون ؟ عندي ما تطلب من الإبل والبقر والشاء ، وإذا طلبتْ أن يقام لها أكبر عرس في الجزيرة العربية فأنا على استعداد ، أأنا صغير في نظرك إلى هذا الحد ياأوس ؟!

فأشار أوس بيده كالمهدّئ الملطِّف ، وقال ياصديقي لا تتعجّل فالأمر أشق من المال وأصعب !!

فحدّق الحارث بعينه كأنه لا يفهم شيئاً ، وتطلع إلى صاحبه متسائلاً دون أن ينبس ببعض الحديث !

فقال أوس في هدوء متزن : ستُفاجأ بخبر غريب ياحارث ، ان الزهراء ليست فتاه كهؤلاء اللاتي يفرحن بالفضة والذهب ، ويحتفلن بالطبول والدوىّ لدى الأعراس ، إنها

تشترط في زوجها أن يكون سيد العرب وسيد الناس !

فقال الحارث متعجباً : وهل أنا أقل شأناً منك ياأوس أنت سيد طيء وأنا سيد بني مرّة ؟ فلم لا أكون صاحبها المختار ؟!

فأطرق أوس صامتاً .. فعاجله الحارث بقوله : تكلم ياصاحبي ، لا تخفِ في صدرك بعضَ الأسرار !!

فحرك أوس رأسه في تطلع ثم قال في صوت يقرب من الهمس :

اعلم ياحارث أن الناس جميعاً يعدوني سيد طي ويعدونك سيد بني مرة ولكن الزهراء لا تعترف بي أو بك أو بأحد من سادات القبائل جميعاً مهما انتشر حديثه وامتد صداه .. لقد كانت معي بالأمس ثائرة حنقة وهي تقول : لن يكون سيدّ العرب جميعاً ورجل الجزيرة كلها غير من يتم على يده الصلح بين عبس وذبيان !

فنظر الحارث في دهشة وهو يقول : الصُّلح بين عبس

وذبيان ، ما لِلفتيات والحروب والقتال !

فأجاب أوس في هدوء :

هذا ما يُحيّرني ياحارث ، كلّ يوم أذبح الذبائح وأطعم الناس وأفض الخصومات وأتصدّر المنتدى إلى آخر الليل ثم لا يقع ذلك منها موقع الاعتبار ، بل تقول في ضيق لن تكون سيد العرب بنحرّ بعير !! بل بإسعاد الناس وإطفاء الحريق بين عبس وذبيان ! وأشهد لقد خاصمتها طويلاً ، وأمتنعت عن لقائها أياماً خلف الأيام ، وهي لا تحيد عن رأي تراه ثم جاءها قبلك نفر من السادات يطلبون يدها فنفرت مغضبة وأعلنتها صريحة عاليه حين قالت لن أكون لغير من يتحمل الديات ويرفع الأذى عن الناس

فسأل الحارث : ولهذا ردَدَتَ سؤالي قبل ساعات !؟

فقال أوس : نعم لأني أرى مطلب هذه الفتاه الغريبة عَسِر المنال !

فسكت الحارث مفكراً ثم قال والبشر يسطع في وجهه :

إن الزهراء فيما يبدو من حديثك عاقلة حازمة ، ولها صفة نادرة لا توجد في الفتيات ، واني لأرجو أن تنجبَ لي خير الفتيان وأشجع الولدان ، وهأنذا أعاهدك أن أبذل جميع ما أملك من مال وجاه وعتاد في السعي الحريص بين عبس وذبيان لأكون جديراً بالزهراء .

فصاح أوس في فرحة طافرة : وقد قبلتُ خطبتك وسأعلنها للناس !

فتراجع الحارث يقول متمهلاً :

أفلا تنتظر ياأوس حتى أسير إلى إخواني في ذبيان وعبس فأعمل على تحقيق السلام المنشود كما ترغب الزهراء فعاجله أوس بقوله : وعد الحُر دَيْن ياحارث ، وقد وثقت بقولك الصادق مطمئناً إلى شرفك ومروءتك فأنت صهري من الأن ، وستسير معك زوجتك من طيء لغطفان حيث تحل في ذوى دمك من ذبيان بعد أن تفرغ من ولائم العرس ودعوة الشيوخ ، في أمد قريب لا يتجاوز الأسبوع أن تيسر الحال .

أسرع شيوخ بني مُرّة إلى مضارب طيء ليشهدوا احتفال العرس مع سيدهم الحارث بن عوف ، فدقت الطبول وأشعلت النيران تنضج عشرات الذبائح من بقر وشياه ، واستمر العرس الكبير عشرة أيام حافلة بمظاهر البهجة البدوية من رقص وعزف وسمر وإنشاد وكان مجلس سيدى العرب أوس والحارث مثار العظمة والجلال في نفوس المشاهدين ، إذ كانا يتعاهدان الوفود بالاحتفاء الباسم ، والإتحاف المشجع وصوت الزعاريد يُشنف الأسماع فيتردد صداها بين الخيام مغردة باسمة ، حتى إذا قضت الأيام العشرة ، سار الهودج العزيز يحمل العروس الشابة إلى مضارب ذبيان ، وانتظر الحارث ان تدعوه زوجته إلى اللقاء الحبيب فمضى الوقت دون أن تشير بشيء فبعث يعلنها برغبته العاجلة في رؤيتها ، فردت في شَمم !

أكما يفعل بالأسيرة ؟ لا والله حتى ينتهي الطريق وأصل إلى بيت أنا سيّدته منذ الآن !!

فإبتسم الحارث وهو يقول : إني لأرى همة وعقلاً ، وأرجو أن تكون الفتاه منجبة أكرم الأولاد إن شاء الله .
ثم سار الركب حتى وصلت العروس إلى بيتها ، وتطلع الزوج إلى لقائها فبعثت إليه من يقول :
أنجزَ حرٌما وعد ، لا والله يا حارث حتى تسعى بالصلح بين المتحاربين

لم يكن الحارث عجولاً طائشاً ، ولكنّه كان كفتاته يحلم بالمجد ، ويتمنّى أن يسير بذكره الركب ، وإنه ليحس أن الأمر جليل الخطر ، وأن العقبة شاقة عسيرة ولابدّ من تحمّل صعابها القاسيات

لقد فكّر فأطال التفكير ثم رجع إلى نفسه يجمع معلوماته الأكيدة عن هذه الحرب الطاحنة ، فأرسل عيونه المتطلعة في مضارب عبس وذبيان والآخرون قومه وذووه فجاءته الأنباء تؤكد أن الفريقين قد سئموا القتال ، ففي كل يوم تزهق الأرواح وتسيل الدماء ، وقد أجدبت الأرض

فانتجعوا الكلأ البعيد وإنه ليشحٌّ ويشح حتى نضب المعين ، وقد أصبحت الحياة في القبيلتين هَمًّاً لا يُطاق ، ومأساة لا تنفد ، وماذا يصنع العبسيٌّ أو الذبيانيٌّ بحياة لا يتأكد صاحبها إذا أصبح أنه سيعيش إلى المساء فإذا أمْسى طارَدَتْه الأحلام المزعجة واعتقد أن الصباح سيفجؤه بالعدوان . أي حياة تفيد بعد أنْ ذهبت الآباء وصُرع الشباب وقامت النوادب في كل مكان يلطِّخن وجوههن بالطين ويرسلن أفجع الصرخات :

إن كل فريق يود المسالمة ويخشى أن يبدأ بالطلب فيُعيرّ بالاستسلام !

لِم لا ينتهز الحارث هذه السانحة فيسعى إلى السّلام ؟!

ها هوذا يفكر في واقع عبس الكريه ، وحاضر ذبيان الأليم ثم يراجع ماله وثراءه فيعز عليه ألا يجد لديه ما يفي بالدّيات ! إنه يُقسم بينه وبين نفسه لو كان المال لديه جميعه لبذله عن سخاء فهل من كريم معوان يؤازه في

مسعاه ! أيذكر صهره أوساً كلاّ !! فالرجل معروف بميله إلى عبس وستكون مسعاته موضع الشبهات !

مَنْ ياترى غير أوس ، ألا يكون هِرم بن سنان !!

إن هِرماً بطل جَوَاد يحب الثّناءويثيب عليه ، وقد سارت مدائح زهير بن ابى سلمى تلهج بمكارمه فلِمَ لا يستجيب إلى النداء ؟!!

لابد من السعي إلى هِرم بن سِنان : وما هو ببعيد !

هذا ما خطر للحارث في ليله الساهر المؤرق ، وما كادت تباشير الصباح ترسل الضياء حتى يمّ ساحة هرم وناداه من وراء الخيام ، ولم يكن صوت الحارث بالمجهول فوقع من هِرم موقع العجب وتساءل في نفسه أيناديه سيد بني مرّة مشافهة على غير انتظار دون أن يرسل من يُعلن مقدمه إلى مضارب سنان :

ثم أسرع فارتدى عباءته ونهض إلى لقاء الزّائر في شَغَفٍ واحتفاء .

قال هرم :

ألا تبعث ياحارث من يخبرنا بقرب مقدمك لنستقبلك بما يليق من الأحتفال : فرد الحارث في تؤده :
إن إجابة مطلبي تقوم مقام الاحتفال ياهرم .

فنظر هرم في دهش وقال : وهل لسيد العرب مطلب لديّ ؟! فألبيه كما أراد

فطأطأ الحارث يقول في سكينة : لم أسعَ في مطلب خاص ولكني ألتمس مساعداً على المروءة العاليه والشرف المجيد ، ولن أجد سواك ؟
فصاح هرم أنا رَهنُ إشارتك ياحارث فقل ما تراه .

نظر الحارث نظرات تشير إلى صاحبه الجوَاد أن يخلو به بعيداً عن آل سنان ، ففهم هرم ما أراد ، وسار به إلى مجلسه الخاص
قال الحارث في تساؤل : أتعلم أن الحرب بين عبس وذبيان قد أفنت الناس ؟

فقال هرم : على غير إرادتي أن يستمر العدوان ياحارث .
فرد الحارث : وهل فقدت الحياة الرجال ، وفيها أمثال هِرم بن سِنان ؟
فأسرع هرم يقول : قل وفيها سيدّ العرب الحارث بن عوف دون سواه .
فرفع الحارث رأسه وقال في نبرة حاسمة :
اسمعْ ياهرم لَسْنا رجالاً ان لم نحسم الشرَّ ، ونسعى بين الناس بالسّلام .
فبادر هرم يسأل :
وكيف السبيل إلى ذاك ؟!

فتابع الحارث حديثه إذ قال : تعلم أن القوم قد سئموا أهوال القتال إذ أكلتهم السِّنون والأيام وهم لا محالة راغبون في الصَّفاء : على أن يسعى فيه من لا يرد مسعاه ، ثم أنخفض صوت الحارث وهو يهمس :
لقد أجريت حساباً دقيقاً عن الديّات فتأكد لديّ أننا

إذا جعلْنا القتلى رأساً فداء رأس فسيبقى من تكون دياتهم ثلاثة آلاف بعير ، نستطيع أن نقدمها نحنُ الإثنين على ثلاثة أقساط كلّ قسط يضمن ألفاً واحداً ، عليّ خمسمائة ، وعليك مثليها ، ونرجع بفخر الأبد ومجد الأجيال !

قال هرم : خمسمائة بعير أقدّمها كل عام ثلاث مرات : هذا ممّا يُستطاع !

فبرقت عينا الحارث في سرور ونهض إلى صاحبه فعانقه في إكبار ثم حّددا موعداً للقاء الفريقين ، وأعلنا تحملهما الديات بعد أخذو رد لم يطل مداهما في النقاش بين زعماء عبس وذبيان فهرع المتحاربون إلى السلام العاجل ثم دقت الطبول مؤذنة بعودة الصفاء بعد شقاء أظلم ليله واستطال .

شاع السلام البهيج فجأة بين الناس فتوافد رءوس العرب على مجِلسْ الحارث بن عوف وهرم بن سنان يهنئونهما تهنئة المعجب الشكور ، وأطّلت الزهراء من خدرها المنبع ، فرأت زوجها الحارث بن عوف يجلس في معشره مرتفع

الهامـة ، بسَّـام الثَّغر ، مُشرق الجبين وطوائف البـدو تمرّ بين يديه مصافحة هاتفه وعن يمينه صديقه الجواد هرم بن سنان يتلقى وإيـاه تهنئـات النصر في بهجـة شـاملـة ، وفرح صخاب ، ثم وقف الشاعر زهير بن أبي سلمى فألقى قصيدته الرنَّـانـه في مـدح السَّلام واتجـه بـالحـديث إلى السيـدين الكريمين .

☆ ☆ ☆

فوفاهما حقهما من الثناء

وانتهى المحفل فـذهب الحـارث إلى بيتـه فقـابلتـه الزهراء في سرور وإبتسام وهي تقول له :

هنيئاً لك ياسيد العرب

فعانقها في سعادة وهو يقول :

أنت صانعة المجد يازهراء

محمد رجب البيومي

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٠٦٦ / ١٩٨٤
الترقيم الدولي ٩ - ١١ - ١٤٢٠ - ٩٧٧